أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الإرهاب فى عصر الحروب الصليبية

جاء فى لسان العرب لابن منظور أن لفظ رهب بكسر ثانيه يرهب رهبة ورهبا، أى خاف . ورهب الشئ رهبا ورهبة ، أى خافه [1]. ومن هذا الجذر اشتق لفظ أرهب بمعنى أخاف، وإرهاب بمعنى إثارة الخوف والفزع . وقد شاع استخدام اللفظ الأخير فى عصرنا الحديث، بمعنى بث الخوف تحت تأثير التهديد بالقتل والاغتيال غدراً ، وصار مصطلحًا لكل الحركات التى شهدها ويشهدها العالم، للتخلص من الخصوم والأعداء ، وصار مصطلحًا لكل الحركات التى شهدها ويشهدها العالم، للتخلص من الخصوم والأعداء والمخالفين ، عن طريق الاغتيال والقتل غدراً مع سبق الترصد والإعداد.

وفى إطار هذا المعنى تميز الإرهاب بطابع خاص وصارت له ملامح محددة، منها أنه اتخذ صورة حركات تعبر غالبًا عن تنظيم جماعى . وبعبارة أخرى فإن حوادث القتل الفردية الناجمة عن الخلافات الشخصية والتحاسد أو التنافس والرغبة فى الانتقام أو السرقة ... لا تعتبر فى المصطلح الحديث حوادث إرهابية . ومن المعروف أن أول حادث قتل فى تاريخ البشرية كان عندما قتل قابيل – ابن آدم عليه السلام– أخاه هابيل حسدًا وسخطًا . ولم يكن قابيل عندما اقترف ذنبه مدفوعًا بقوة خارجية وإنما: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [2]. ولا يمكن بمفهومنا الحديث أن نصف قابيل بأنه إرهابى وأن عمله كان إرهابا. وكذلك عندما

١– ابن منظور لسان العرب ، مادة رهب.

٢– المائدة ، آية ٣٠ .

نقرأ فى الكتب السماوية أن موسى عليه السلام دخل مدينة على حين غفلة من أهلها فوكز بعصاه رجلاً فقضى عليه وقتله ، فإننا لايمكن أن نعتبر هذا عملاً إرهابيًا ، بدليل أن موسى سارع إلى استغفار ربه معاهداً إياه- عز وجل- على ألا يكون «ظهيراً للمجرمين»[١].

والإرهابى بمفهومنا الحديث لايعمل غالبًا بمفرده، وإنما تقف وراءه جماعة ، ينتمى إليها ، ويدين بفكرها وآرائها، ويمتثل لأوامرها ويخضع لإرادتها ويرتزق من ورائها. إنها بمثابة الرئاسة التى تخطط له وتحدد له دائرة نشاطه الذى يتصف غالبا بمسحة إجرامية . وفى مقابل كل ذلك فإنها تقدم له الوعود المعسولة ، وتتعهد بمساندته بعد تنفيذ الجريمة التى تحدد له أسلوبها ومكانها وتوقيتها.

وباستعراض العديد من الحركات الإرهابية عبر عصور التاريخ نجد أن معظمها يتمسح بالدين، ويتخذ منه ستاراً يخفى وراءه أهدافًا وتطلعات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية . وكثيراً ما تستخدم بعض المؤسسات الدينية ودور العبادة مراكز لنشاط الإرهابيين بل ربما ساحة لتنفيذ جرائمهم . فالدين بحكم ما له من سطوة على القلوب والنفوس، صار فى نظر الإرهابيين أصلح حجاب يمكنهم أن يستتروا خلفه لتبرير جرائمهم ضد المجتمع، والتخطيط للتخلص من القوى التى يعتقدون أنها تشكل حاجزًا يحول بينهم وبين تطلعاتهم وأهدافهم الهدامة المستترة . وقد تكون هذه الأهداف التعطش للوصول إلى الحكم لمجرد الرغبة فى فرض السيادة بدعوى الإصلاح ، أو الرغبة فى التحكم فى الثروات لنهب الأموال، أو غير هذا وذاك . وفى جميع الحالات يكون الاغتيال والقتل غدراً هو السلاح الرهيب الذى يعمل به الإرهابيون لنشر الرعب بين الناس، وإرغامهم على الخضوع لإرادتهم والرضوخ لسيادتهم والاستسلام لآرائهم ، بوصفهم «الأمراء» الذين يمسكون بأيديهم مفاتيح الحياة والموت ويتحكمون فى أبواب الجنة والنار.

وفى ضوء ما سبق يبدو أن الحركة الإرهابية يكون لها عادة ركنان أساسيان :

(أ) رئيس أو جهاز من الرؤساء يدبر ويرسم ويخطط ويوجه ، ويقدم المساعدات ويوفر الإمكانات ، ويختلق الوعود . وقد يتمثل هذا الجهاز فى حكومة من حكومات الدول التى تتخذ من الإرهاب وسيلة لفرض زعامتها على مجموعة من الدول التى تنافسها فى مجالات السياسة والرئاسة والاقتصاد.

١- القصص، آية ١٧ .

(ب) خلايا مأجورة من الأتباع والعملاء المخدوعين ، يراعى فيهم أن يكونوا فى حالة ضياع فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وهؤلاء تجرى لهم عمليات غسيل مخ- تحت ستار الدين غالبًا - لاحتوائهم فكريًا وعقائديًا ، واستثارة مشاعرهم وحماستهم، وتقدم لهم الوعود المعسولة بأنهم هم المرشحون لحكم البلاد والعباد. ويمثل هذا الفريق أداة تنفيذ الجريمة، فيمضى الواحد منهم ليقترف ما يكلف به من عمليات الاغتيال وقتل الأبرياء ، وتخريب المنشآت ، إما رغبة فى الحصول على مكاسب دينية ودنيوية، وإما خوفًا من الوقوع تحت طائلة العقاب من رؤسائه ومحرضيه ، بعد أن تورط معهم وصار فى وضع لاينفع معه الندم ويصعب فيه التراجع عنه والانسحاب منه .

هذان الجهازان هما الركنان الأساسيان لأية حركة إرهابية . وإذا كان الجهاز الأول هو المدبر والمخطط والمحدد للجريمة ، فإن الجهاز الثانى هو التابع المنفذ . وقد تكون الصلات بين هذين الركنين أو الجهازين غير مباشرة ، وإنما تتوسط بينهما حلقات وكوادر أخرى من الدعاة والوسطاء ، وذلك رغبة فى التستر وزيادة فى الحرص والحيطة . ذلك أن رؤساء الحركات الإرهابية والمخططين لها، غالبًا ما يكونون على درجة من الجبن والحرص على الحياة بقدر ما يتطلبونه فى العملاء المنفذين للجريمة من جرأة وشجاعة وتضحية وفداء .

* * *

ولم تسلم الدولة الإسلامية عبر عصور التاريخ من ظهور بعض الحركات الإرهابية التى ذهب ضحيتها العديد من الأبرياء والمصلحين ، بل من الصالحين والمجاهدين . وفى هذه الحركات أمعن الإرهابيون فى ارتكاب جرائمهم، مدعين أنهم يعملون لخدمة أهداف يلصقونها بالدين لصقًا زائفًا مفتعلاً ، متناسين قوله تعالى : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين ﴾(١)، وقوله سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ (٢)، وقوله عز وجل : ﴿ ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها ﴾ (٣).

وثمة ظاهرة تسترعى نظر المؤرخ اليقظ ، ولاسبيل لإنكارها لأنها حقيقة تاريخية، هى أن معظم الحركات الإرهابية الكبرى التى برزت فى تاريخ الدولة الإسلامية، ونخرت بنيانها فى

١- المائدة، آية ٨٧ .

٢- الإسراء ، آية ٣٣ .

٣- النساء ، آية ٩٣ .

كثير من حلقات التاريخ كان مصدرها بلاد فارس أو إيران الحالية، فمن هذه البلاد صدر العديد من الآراء الهدامة وانطلق الكثير من الدعاوى الباطلة التى تتمسح بالإسلام وتتخذ منه قناعًا تخفى وراءه اتجاهات هى أبعد ما تكون عن جوهر الإسلام وآفاقه . ومن فارس انطلقت هذه الحركات الهدامة إلى كثير من بلاد الدولة الإسلامية – شرقًا وغربًا ، تحاول نشر فكرها عن طريق إثارة الذعر واغتيال المخالفين والمعارضين .

وفى تعليل هذه الظاهرة رأى بعض الباحثين والمفكرين ، أن الفرس– وهم أصحاب سيادة قديمة وحضارة عريقة– صدموا لما حدث فى صدر الدولة الإسلامية من نجاح العرب فى فتح بلادهم وفرض السيادة العربية عليهم. وكان الفرس– قبل الإسلام– يحتقرون العرب ويقللون من شأنهم ، ولايرون فيهم إلا قبائل بدوية ، لاحضارة ولاجذور لها. وإذا كانت الظروف قد اضطرت الفرس إلى الرضوخ لحكم العرب تحت مظلة الإسلام ، فلا أقل من أن يستغلوا الإسلام لتصحيح الوضع، وإعادة بناء الهرم– من وجهة نظرهم– إلى وضعه الطبيعى، بحيث تكون السيادة للفرس، حتى ولو أدى ذلك إلى هدم العرب والعروبة. وما دامت سيادة العرب– فى نظرهم ارتبطت بالإسلام ، فليحاول الفرس– وهم قادرون بحكم جذورهم الحضارية – تفسير تعاليم الإسلام تفسيرات دخيلة تتفق وأهدافهم ، واستخراج فرق ومذاهب وطوائف ذات آراء ومعتقدات بعيدة عن روح الإسلام ، لهدم الأمة العربية ونقل السيادة على العالم الإسلامى للفرس .

ومن أبرز المفكرين الذين أدركوا هذه الحقيقة وعبروا عنها تعبيراً دقيقًا ، المؤرخ أحمد بن على المقريزى – شيخ المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر للميلاد– إذ كتب يقول ما نصه :

[واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر على أنفسها ، بحيث كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم].

[فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب– وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً– تعاظمهم الأمر، وتضاعفت عليهم المصيبة، ورأموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى. وفى كل ذلك يظهر الله الحق . وكان من قائميهم (زعماء الحركات الإرهابية) شنفاد، وأشنيس ، والمقنع، وبابك ، وغيرهم... فرأوا أن كيده (كيد الإسلام) على الحيلة أنجع ...] .

* * *

وقد حفلت المرحلة النشطة فى تاريخ الحروب الصليبية فى الشرق الأوسط، وهى الفترة الواقعة بين أواخر القرن الحادى عشر وأواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، (الخامس والسابع للهجرة) بالعديد من حوادث القتل والاغتيال ، سواء فى الجانبين الإسلامى والمسيحى. ولكن الغالب على هذه الحوادث أنها لم تستند إلى حركات إرهابية أو تنظيمات خططت لها لتحقيق أهداف معينة، وإنما كانت حوادث فردية ، ناجمة عن خصومات شخصية أو منافسات فردية، معظمها حركته أطماع سياسية ، ويستثنى من ذلك جماعة إرهابية كبرى انبعثت من بلاد فارس، وانطلقت إلى العديد من بلاد الشرق الأوسط، لتلعب دوراً خطيراً فى عصر الحروب الصليبية . ونعنى بهذه الجماعة فرقة الإسماعيلية التى أطلق عليها أيضاً اسم الباطنية واسم الحشيشية .

والإسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق . يقول الشهرستانى فى كتابه (الملل والنحل) إن من أشهر ألقابهم الباطنية، و«إنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً» . وبعبارة أخرى، فإنهم استباحوا لأنفسهم تأويل أحكام الشريعة ، فجعلوا لكل حكم من أحكام الشريعة باطناً يتفق وأهدافهم ، ولايحيط به إلا أهل العلم منهم . ويرد المقريزى على ذلك قائلاً «والحق الذى لاريب فيه هو أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجوهر لا سر تحته» .

ولعله من المناسب هنا أن نؤكد عدم الربط بين مصطلحى الشيعة والباطنية ، بمعنى إنه إذا كان الباطنية قد انحرفوا عن المذهب الشيعى ، فليس معنى ذلك أن كل شيعى باطنى. وبعبارة أخرى، إذا كان الباطنية قد تفرعوا عن الشيعة إلا أنهم يمثلون جناحاً متطرفاً ، ليس له من التشيع إلا الاسم والطلاء الخارجى. أما الشيعة المعتدلون فهم أبعد ما يكونون عن سياسة التطرف التى انتهجها الباطنية . ويعبر عن هذه الحقيقة المؤرخ ابن الأثير عندما يشير فى حوادث سنة ٥٠١هـ إلى الأمير العربى سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس ، فيقول ما نصه :

(وقد طعن فى اعتقاده ، ونسبه بعض خصومه إلى مذهب الباطنية، وكذب ، وإنما كان مذهبه التشيع لا غير) .

وقد برز من رؤساء الباطنية اسم الحسن بن الصباح (ت ٥١٨هـ) الذى وصفه المؤرخون بأنه كان شهماً ، ذكياً ، عالماً بالهندسة والحساب والنجوم. وكان أن ادعى أنه مصدر العرفان، فأول القرآن تأويلاً يتفق وأهدافه السياسية، ونشر دعاته فى البلاد والأقاليم . ولم يلبث أن

اشتد ساعده فى فارس وبلاد المشرق ، فاستولى على العديد من القلاع والحصون ، منها قلعة اصبهان ، وقلعة الموت من نواحى قزوين ، وقلعة وسنمكرة، وقلعة خالنجان ، وقلعة استوناوند ، وقلعة أردهن ، وقلعة الناظر ، وقلعة الطنبور، وقلعة خلادخان ... وغيرها .

ثم إن الحسن بن الصباح نظم جماعته على درجات ، وجعل نفسه رئيسًا للدعوة، وهو ما أطلق عليه اسم (شيخ الجبل) . ويعنينا فى هذه الدرجات تلك الفئة التى أطلق على أفرادها اسم الفداوية، أو الفدائيين ، وهم يمثلون المرتبة الخامسة فى درجات التنظيم .. وكان يراعى فى اختيار هؤلاء الفدائيين صفات خاصة، أهمها الجرأة والذكاء والمرونة فى الحركة . ولم يشترط فى الفدائى الإلمام بأصول الدين وأحكامه ، أو الدراية بأسرار المذهب وتعاليمه ، وإنما اشترط فيه الطاعة العمياء لرؤسائه ، وتنفيذ كل ما يصدر إليه من أوامر وتعليمات خاصة ما يتعلق باغتيال من توكل إليه مهمة اغتيالهم. وبذلك تحولت جماعة الباطنية الاسماعيلية إلى تنظيم إرهابى خطير أثار الذعر فى جوف الدولة الإسلامية .

يذكر الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م) أن رئيس الدعوة - شيخ الجبل- أنشأ قرب قلعة الموت- فى إقليم قزوين- بستانًا حرص على أن يزوده بكل أوصاف الجنة، من خمر لذة للشاربين ، ولبن لم يتغير طعمه ، وعسل مصفى، وفاكهة مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون... فإذا وقع الاختيار على أحد الفتية لينخرط فى سلك الفداوية ، فإنه يسقى جرعة من مشروب مخدر - لعله من نبات الحشيش- مما جعل اسم الحشيشية يلصق بهذه الجماعة. وعندما يفقد المخدَّر وعيه ، يُحمل إلى تلك الجنة المصطنعة ، حتى يفيق ، فتترك له حرية الاستمتاع بما فى جنته من ألوان المتعة . وبعد عدة أيام يعاد تخديره ليحمل وهو فاقد الوعى إلى موضعه الأول، حتى إذا ما أفاق أخذ يحلم بالعودة إلى الجنة، وعندئذ تقدم له الوعود بإعادته بشرط أن ينفذ جريمة الاغتيال فى فلان من خصوم الباطنية. وهكذا يمضى الفدائى لا يلوى على شئ محاولاً تنفيذ الجريمة، ربما دون وعى بأبعادها وأسبابها وعواقبها .

ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن شوكة الباطنية أخذت تشتد منذ أيام السلطان السلجوقى ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) . وكان الباطنية قد دعوا مؤذنًا مقيمًا بأصبهان للدخول فى دعوتهم ، فلم يستجب لهم فقتلوه . وعندما أمر نظام الملك- وزير السلطان ملكشاه- بقتل القاتل، انتقم الباطنية باغتيال نظام الملك ، وهو من أعلام رجال السنة البارزين. وقد حزن جمهرة المسلمين حزنًا شديداً لمقتل نظام الملك سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) «لما كان عليه من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن»

على قول ابن القلانسى . أما عن كيفية اغتيال نظام الملك، فقد قتل بنفس الأسلوب الذى شاع بين الباطنية فى اغتيال ضحاياهم، إذ يقترب الباطنى الإرهابى من فريسته فى صورة مستغيث ، حتى إذا ما تمكن منه أخرج سكينًا يخفيه فى طيات ردائه وطعنه عدة طعنات حتى يخر قتيلاً. فاذا لم تتم عملية الاغتيال وظهر أن الفريسة ما زالت على قيد الحياة ، برز باطنى ثان، وربما ثالث حتى يتم الإجهاز على الضحية .

وهكذا تعرض الباطنية فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين فى الشرق الأوسط لعدد من حكام المسلمين وأمرائهم- وبخاصة من أهل السنة- بالاغتيال يذكر المؤرخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٠هـ أن الأمير أقسنقر – بهمدان – «كان كثير الغزو إليهم، والقتل فيهم، والتخريب لبلادهم، فوثب عليه جماعة من الاسماعيلية فقتلوه» . ولعل هذا مما جعل الأمراء فى ذلك العصر ، يبالغون فى الحيطة ولبس الدروع، حتى فى ذهابهم إلى الجامع للصلاة ، خوفًا من أن يتعرضوا للاغتيال على أيدى تلك الجماعة الهدامة . من ذلك ما جاء فى المصادر المعاصرة عن الأمير بلكابك سرمز، من أمراء السلطان محمد السلجوقى ، إذ «كان كثير الاحتياط من الباطنية ، لايفارقه لبس الدرع». وعندما أغفل فى أحد الأيام لبس درعه «قتله الباطنية» (سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠م) .

ولم يقف سلاطين السلاجقة- وهم من أهل السنة- موقف المتفرج على نشاط الباطنية. من ذلك أن جاولى سقاووا- حاكم الموصل من قبل السلطان محمد السلجوقى – حارب الباطنية سنة ٤٩٤هـ (١١٠١م) «وقتل خلقًا كثيرًا منهم» . وفى نفس تلك السنة «فتك السلطان بركياروق بالباطنية، بعد أن اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم، وكثر عددهم وقتلوا جماعة من الأمراء الأكابر...، وصاروا يتهددون من لايوافقهم بالقتل .. فأشار بعض خواص السلطان عليه أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم...».

وفى سنة ٤٩٧هـ (١١٠٤م) أمر السلطان سنجر أحد أمرائه بقتال الباطنية، (فأكثر فيهم القتل والنهب والسبى ، وفعل بهم الأفعال العظيمة...) ، على أنه يبدو أن السلطان سنجر تخوف من الإمعان فى معاداة الباطنية، فصالحهم وأمنهم، بعد أن اشترط عليهم «أن لايبنون حصنًا ولايشترون سلاحًا ولايدعون أحدًا إلى عقائدهم ...» وكان أن غضب رعايا السلطان من ذلك الصلح ، مما يدل على استياء جمهور المسلمين من تلك الفرقة الإرهابية الهدامة «فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونقموا على سنجر» .

وكان جمهور الناس على حق فى نقمتهم على تلك الفرقة الإرهابية إذ تشجع الباطنية فى خراسان، وأغاروا فى العام التالى - ٤٩٨ هـ / ١١٠٥م- على عديد من النواحى (وأكثروا القتل فى أهلها، والنهب لأموالهم ، والسبى لنسائهم حتى اشتد أمرهم ، وقويت شوكتهم...) حتى حجاج بيت الله الحرام لم يسلموا من عبث هؤلاء الإرهابيين، مما يدل على إنعدام الوازع الدينى عندهم، وبعدهم عن الإسلام وأركانه وروحه وأحكامه ، فأغاروا فى نفس السنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٥م) على قافلة كبيرة للحجاج (فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاؤوا، وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئًا ....)

* * *

ثم إن الباطنية الاسماعيلية الذين انطلقت حركتهم الإرهابية من بلاد فارس مدوا نشاطهم إلى مصر وبلاد الشام، وذلك منذ وقت مبكر يرجع إلى أواخر القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى. وفى ذلك الحين كانت تقوم للمذهب الإسماعيلى دولة فى مصر، هى الدولة الفاطمية. ومع أنه لايوجد أى دليل على أن الفاطميين انغمسوا فى المسار المنحرف الذى سلكته الباطنية ، إلا أن هناك ما يشير إلى أن الباطنية حاولوا توثيق الروابط مع الفاطميين ، ربما للحصول على تأييدهم، ففى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦م) «وصل الحسن بن الصباح الاسماعيلى فى زى تاجر إلى المستنصر بالله (الخليفة الفاطمى عندئذ بالقاهرة) وخاطبه فى إقامة الدعوة له بخراسان وبلاد العجم». ثم أخذوا يعملون لنشر الدعوة للفاطميين فى المشرق، إذ «قصدوا ما وراء النهر، ودعوا إلى طاعة المستنصر بالله العلوى صاحب مصر ، فتبعهم جمع كثير، وأظهروا مذاهب أنكرها أهل تلك البلاد».

ومع ذلك فإن الدولة الفاطمية فى مصر لم تسلم من شرور الباطنية الذين لم يترددوا سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) فى اغتيال الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالى «صاحب الأمر والحكم بمصر ... وكان الاسماعيلية يكرهونه لأسباب منها تضييقه على إمامهم ، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، ومنها ترك معارضة أهل السنة فى اعتقادهم ، والنهى عن معارضتهم...». وكان أن انقض عليه ثلاثة من الإرهابيين الباطنية، وهو فى طريقه إلى خزانة السلاح، وطعنوه بالسكاكين فى خاصرته «فسقط عن دابته» . وبعد ذلك بسنوات قليلة- سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ - اغتال الباطنية الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله صاحب مصر «وثب عليه الباطنية فقتلوه».

أما بلاد الشام فقد تسرب نفوذ الباطنية إليها أيضًا فى أواخر القرن الخامس الهجرى – الحادى عشر للميلاد– بحيث لم يستهل القرن التالى إلا وكانت لهم سطوة فى تلك البلاد وعندما نقول أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس للهجرة – الحادى عشر والثانى عشر للميلاد – علينا أن نتذكر أن تلك الفترة تمثل المرحلة التى غزا فيها الصليبيون الغربيون بلاد الشام وأقاموا لأنفسهم مملكة قوية فى بيت المقدس، فضلاً عن بعض الإمارات فى المدن الكبرى، وهكذا جاء استفحال خطر الباطنية فى بلاد الشام فى تلك المرحلة الحرجة ليزيد من سوء الأوضاع التى تعرضت لها الجبهة الإسلامية، مما أضر بحركة الجهاد الإسلامى أبلغ الضرر.

وقد اتخذ نشاط الباطنية الحشيشية فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية اتجاهين: أولهما– وهو الاتجاه الرئيسى الذى استهدف مقاومة المذهب السنى واغتيال زعمائه وقادته . وثانيهما – وهو الاتجاه الفرعى وقد استهدف اغتيال بعض الزعماء الصليبيين– لا لأنهم صليبيون، ولكن لأنهم وجدوا فيهم خطراً يهدد– أو على الأقل يعوق– نشاطهم ويقف عقبة فى طريق تحقيق طموحاتهم.

ولم يتحرج الباطنية فى بلاد الشام من محالفة الصليبيين حينًا، أو مساعدة بعض زعماء السنة ضد خصومهم أحيانًا ، مما جعل منهم عصابة من الارهابيين المأجورين ، يعملون لحساب هذا الجانب أو ذاك ، وفقًا لما تتطلبه مصالحهم أو لما يعود عليهم من كسب.

واتخذ الباطنية عدة قلاع وحصون ببلاد الشام مراكز لنشاطهم منها حصن القدموس الذى اشتروه سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م) من صاحبه ابن عمرون، و«صعدوا إليه ، وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج، وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم ». وحصن مصيات (مصياف أو مصياب)، «وكان مملوكًا لبنى منقذ– أصحاب شيزر ، فاحتالوا عليه (على صاحبه) ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م) . وفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) ملكوا بانياس ، «فجلت المحنة واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين لاسيما أهل السنة...» وندرك من هذه العبارة الأخيرة أن الباطنية كانوا سوطًا مسلطًا على الدين وأهله، وإن تظاهروا بالتمسح بالدين. ذلك أن الاغتيال كان السلاح الرهيب الذى استغله الباطنية فى التخلص من خصومهم ، مما أثار فى تلك الحقبة جوًا من الإرهاب والخوف فى الشام ومصر ، فضلاً عن خراسان وبلاد المشرق.

وقد بلغ من تطرفهم أنهم كانوا يختارون وقت الصلاة لاغتيال ضحاياهم ، مما جعل العديد من الشهداء يتعرضون للقتل فى المساجد والجوامع وربما وهم يؤدون الصلاة. من ذلك ما حدث سنة ٤٩٦هـ (١١٠٣م) من اغتيالهم جناح الدولة حسين صاحب حمص ، وكان قد «نزل من القلعة إلى الجامع لصلاة الجمعة ، وحوله خواص أصحابه بالسلاح التام، فلما حصل بموضع مصلاه على رسمه، وثب عليه ثلاثة نفر عجم من الباطنية ، فضربوه بسكاكينهم ، وقتلوه ، وقتلوا معه جماعة من أصحابه ...». وبعد ذلك بثلاث سنوات، قتل خلف بن ملاعب صاحب فامية «قتله قوم من الباطنية».

وزاد من سطوة الباطنية فى بلاد الشام فى أوائل القرن السادس الهجرى- الثانى عشر للميلاد - عطف رضوان ملك حلب عليهم، بعد أن وجد فيهم أداة صالحة للتخلص من خصومه ، ويقول المؤرخ ابن الأثير أنه عندما قتل الباطنية جناح الدولة حسين صاحب حمص ، فإن ذلك «كان بأمر رضوان ورضاه».

ومن ناحية أخرى، استغل طغتكين أتابك دمشق الباطنية فى اغتيال المجاهد الكبير مودود أتابك الموصل، الذى أتى إلى الشام نجدة للمسلمين فى حربهم ضد الصليبيين . فلما كان يوم الجمعة الأخيرة من شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) وبعد أن فرغ مودود من أداء صلاة الجمعة فى جامع دمشق وبصحبته طغتكين - اقترب رجل من الباطنية من الأمير مودود «كأنه يدعو له ويتصدق ... وضربه بخنجره أسفل صرته » فقتله . ويقال إن ملك بيت المقدس الصليبى كتب إلى طغتكين بعد مقتل مودود كتابًا جاء فيه : «إن أمة قتلت عميدها ، يوم عيدها (يوم الجمعة) ، فى بيت معبودها (المسجد) ، لحقيق على الله أن يبيدها».

وهكذا مضى الباطنية فى تنفيذ مخططهم الإرهابى فى بلاد الشام فذهب ضحيتهم جماعة من خيرة المجاهدين فى وقت كان المسلمون فى حاجة ماسة إلى جهودهم، الأمر الذى أثار استياء جمهرة المسلمين- وخاصة من أهل السنة- بالشام . وما كاد رضوان صاحب حلب يموت سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) ، حتى استثار أهل حلب ابنه وخليفته- ألب أرسلان، الملقب بالأخرس - ضد الباطنية. وكان أن أمر ألب أرسلان بالإيقاع بهم فى حلب، مما أدى إلى مقتل مقدمهم أبى طاهر الصائغ ، هو وجماعة من أعيانهم، فى حين فر الباقون «فمنهم من قصد الفرنج، وتفرقوا فى البلاد» .

وهولاء الباطنية الذين فروا من حلب عقب وفاة رضوان سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) ، واتجهوا إلى الصليبيين صاروا عونًا لهم ضد المسلمين وأداة فى أيديهم لاغتيال قادة حركة الجهاد

الإسلامى. يذكر المؤرخ ابن الأثير أن الباطنية عندما ازداد نفوذهم فى دمشق، راسلوا الفرنج، سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩م) ليسلموا دمشق للصليبيين مقابل تنازل هؤلاء الأخيرين عن مدينة صور للباطنية . ولكن تاج الملوك بورى صاحب دمشق اكتشف المؤامرة ، فقتل المزدقانى زعيم الباطنية بدمشق، وعلق رأسه على قلعة المدينة، وأخذ يطارد الباطنية حتى قتل منهم ستة آلاف. وقد أثار ذلك الوضع مخاوف اسماعيل الباطنى والى بانياس ، «فراسل الفرنج، وبذل لهم تسليم بانياس والانتقال إلى بلادهم (لاجئًا) ، فأجابوه ، فسلم القلعة إليهم، وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى بلادهم ، ولقوا شدة وذلة وهوانًا ...».

وهكذا تحقق أكثر من تحالف بين الباطنية والصليبيين فى بلاد الشام فى تلك الحقبة ، ضد الخصم المشترك، ممثلاً فى أمراء المسلمين وقادتهم من أهل السنة . ولا أدل على قوة الرابطة بين الباطنية فى الشام والصليبيين فى تلك المرحلة، من مدى تأثر الصليبيين وغضبهم لمقتل المزدقانى زعيم الباطنية فى دمشق ، إذ كانوا يبنون عليه آمالاً كبارًا فى الاستيلاء على هذه المدينة . لذلك ما كادوا يسمعون خبر مقتله حتى «تأسفوا على دمشق حيث لم يتم لهم ملكها...».

ونخرج مما سبق بنتيجة واضحة، هى أن هؤلاء الإرهابيين الذين تمسحوا بالدين كانوا أبعد ما يكونون عن الإخلاص للدين. لقد اتخذوا الإسلام ستارًا يخفون من ورائه سياستهم الإجرامية فى اغتيال الأبرياء ، وسفك دماء المجاهدين ، والتخلص من المعارضين لهم. ولا مانع لديهم من تسليم البلاد وأهلها إلى الغزاة المعتدين، من الصليبيين الغربيين.

ولم يغفر الباطنية لتاج الملوك بورى صاحب دمشق قتل زعيمهم المزدقانى ، فدبروا مؤامرة لاغتياله سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م) «وجرحوه جرحين، برأ أحدهما ، وبقى الآخر حتى اشتد عليه، وتوفى بسببه بعد قليل...».

ومضى الباطنية فى سياستهم الإرهابية ، بحيث يضيق المقام عن ذكر كافة ضحاياهم من الأبرياء . وفى النصف الأخير من القرن السادس الهجرى- الثانى عشر للميلاد - لم يسلم صلاح الدين الأيوبى- بطل الجهاد الذى وهب نفسه لتخليص قلب العالم الإسلامى من خطر الغزاة - من محاولة اغتياله على أيدى تلك الفرقة الإرهابية التى ادعت نسبتها إلى الإسلام. وقد حدث سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م أن دبر جماعة من أتباع الدولة الفاطمية فى مصر مؤامرة لاغتيال صلاح الدين . ولما وجدوا أنهم فى حاجة إلى مساعدة خارجية، بادروا بالاتصال

بالفرنج فى الشام وصقلية ، كما كاتبوا سنان مقدم الحشيشية فى الشام ليبعث إليهم أحد رجاله المدربين لاغتيال صلاح الدين و«يثب عليهم مكيدة وصيلة». ولكن صلاح الدين اكتشف المؤامرة وتخلص من مدبريها .

ولم يصرف الباطنية نظرهم عن صلاح الدين بعد ذلك، أصروا على اغتياله. فبينما كان صلاح الدين يخوض معركته الضارية ضد الصليبيين فى بلاد الشام، إذا به يفاجئ وهو يحاصر قلعة إعزاز سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) بأحد الباطنية يثب عليه، «فضربه بسكين فى رأسه فجرحه ، ولولا أن المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله». وتعاقب بعد ذلك ثلاثة من الباطنية- الواحد بعد الآخر - يهاجمون صلاح الدين، ولكنهم قتلوا جميعاً، وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور لايصدق بنجاته».

ولم تكن هذه المحاولة الأخيرة لاغتيال صلاح الدين على أيدى الباطنية، إذ تعددت محاولاتهم ، لا لسبب سوى أن صلاح الدين سنى يشكل عقبة فى وجه نشاطهم . ومن ناحية أخرى فإن صلاح الدين لم يغفر للباطنية عدوانهم، فهاجم حصونهم بالشام، و«حصر قلعة مصياب - وهى أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم- فنصب عليها المجانيق ، حتى توسط شهاب الدين الحارمى- خال صلاح الدين فرحل عنهم». ويبدو أن صلاح الدين كان راغبًا عندئذ فى توجيه كل طاقته ضد خصومه من الصليبيين ، ولنا أن نتخيل صورة التاريخ لو كان هؤلاء الإرهابيون قد نجحوا فى تنفيذ خططهم التى استهدفت قتل صلاح الدين. فلو تحقق ذلك ، ما كانت حطين، وما كان استرداد «بيت المقدس- على الأقل فى تلك المرحلة- من الغزاة الغربيين، ولتعرض المسلمون فى الشرق الأدنى لمزيد من الضربات ، نتيجة لأعمال عصابة من المجرمين يدعون الانتماء إلى الإسلام .

وفى تلك الأثناء ، كان هؤلاء الملاحدة من الإرهابيين يواصلون نشاطهم الهدام فى المشرق الإسلامى. ولم تتوقف هجماتهم العدوانية على قوافل الحجاج ، فانقضوا على قافلة لهم سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) وأبادوهم ، و«قتل منهم من الأئمة والعلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير . وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الإسلام وخصت خراسان، ولم يبق بلد إلا وفيه مأتم ...» ولم يستسلم سلاطين السلاجقة أمام خطر الباطنية ، فاستمروا يواصلون جهودهم لمطاردة الإرهابيين والعمل لاستئصال شأفتهم. وساعدهم فى جهودهم عامة الناس والأهالى الذين كانوا «يكرهون مجاورتهم».

* * *

ومنذ أواخر القرن السادس وأوائل السابع للهجرة (الثانى عشر والثالث عشر للميلاد) أخذ تيار تلك الجماعة الإرهابية يضمحل ، بعد أن لمسوا أنهم مكروهون من كافة الناس، وأن المجتمع الإسلامى ضاق بجرائمهم ذرعًا.

وكفى أن الناس أحسوا بأن أولئك الإرهابيين حرموهم من نعمة الأمن التى هى أساس بقاء أى مجتمع ، والتى تعتبر من أبرز خصائص المجتمع الإسلامى.

وكان أن اضطر الباطنية إلى التراجع والعودة إلى طريق الله ونبذ الإرهاب . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذت أعدادهم تتناقص مما أضعف من قوة نشاطهم . وفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) أعلن مقدم الباطنية التوبة «وأظهر الانتقال عن فعل المحرمات وإستحلالها، وأمر بإقامة الصلوات وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام. وأرسل مقدمهم رسلاً إلى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك، وأرسل والدته إلى الحج ، فأكرمت ببغداد إكرامًا عظيمًا وكذلك بطريق مكة ...».

وإذا كانت قد تبقت للباطنية بعض الحصون ببلاد الشام حتى منتصف القرن السابع الهجرى- الثالث عشر للميلاد- فإن السلطان الظاهر بيبرس- سلطان دولة المماليك (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) استولى على تلك الحصون واحدًا بعد آخر ، وبذلك عادت ممتلكات الباطنية إلى رحاب الإسلام الحق «فأقيمت هناك الجمعة وترضى عن الصحابة بها ، وعفيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره»، على قول المؤرخ المقريزى.

وهكذا انطوت صفحة قاتمة من صفحات الإرهاب التى لوثت التاريخ الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية.

لقد اتضح أن أعضاء الحركات الإرهابية الذين يستترون خلف رداء الإسلام هم أشد خطرًا على الإسلام من خصومه . إنهم وباء يصيب المجتمع ، يجتاح البلاد ويعصف بالعديد من أبرياء العباد...

ومن الواضح أن الصعوبة الكبرى التى واجهتها وتواجهها الحركات الإرهابية هى افتقارها إلى ركيزة تستند إليها من أهالى البلاد، فالإنسان النقى النفس يرفض الغدر وينفر بطبيعته من ظاهرة اغتيال الأبرياء وسفك دماء الآمنين. وتشتد هذه المشاعر وتقوى فى ظل الأديان السماوية التى نهت جميعًا عن ظاهرة قتل الإنسان أخيه الإنسان دون ذنب جناه .

هناك أركان أساسية لاستقرار المجتمع البشرى وازدهار الحضارة الإنسانية ، أهمها الإحساس بالأمن والطمأنينة مما يحقق للمجتمع وللفرد قدراً من الاستقرار وهدوء البال يمكنه من العمل والإنتاج من جهة ، والاستمتاع بما هيأه الله له من أسباب المتعة الحلال من جهة أخرى . لذلك رفض الناس فى كل زمان ومكان ظاهرة الإرهاب ، ولم يروا فى الإرهابيين إلا أعداء لله وللبشر . ولم ينفع الإرهابيين تمسحهم بالدين ومحاولتهم التستر خلفه ، وإنما كانت الصخرة التى تحطمت عليها حركاتهم الإرهابية عبر العصور هى عدم وجود ركيزة من أهل البلاد تبارك- أو على الأقل- تقر جرائمهم فى حق البلاد والعباد. ومهما يشيع الإرهابيون من ذعر وخوف ، فهم فى نظر المجتمع عصابة من الأشرار المخربين الذين جلبوا على الشر والغدر، والتعطش لسفك دماء الأبرياء وهؤلاء «مأواهم النار وبئس مثوى الظالمين» .